مسارات الانحراف
عبقرية البداية وحتمية النهاية

محمد فرحات

الانحراف في الفكر البشري ظاهرة قديمة، ومسارات هذا الانحراف قد تتعدد، وتختلف وجهاتها بحسب الطبيعة العامة للمجتمع والبيئة التي ينشأ فيها؛ لكن مع تعدد هذه المسارات وتباينها فإنها تتلاقى في كثير من الملامح المشتركة، من أبرزها: نقطة البداية.

فنقطة البداية هي قاسم مشترك، ترتكز عليها مسيرة أي انحراف بشري، والمتتبع لتلك المسارات يجد أن الانحراف الجيد -لو جاز لنا وصف الانحراف بأنه جيد- هو الذي يتكئ على بداية جيدة، أما الانحراف الشديد فهذا يحتاج إلى بداية مغايرة تمامًا.

بداية عبقرية!

إن "عبقرية البداية" هي أهم مؤثر في تجذير وتأصيل أي انحراف، خاصة في المجتمعات ذات الطبيعة المحافظة، والنمطية الفكرية المعتزة بتراثها الثقافي، والأيديولوجي.

ومن أبرز الأمثلة على هذا: الانحراف الوثني لدى العرب؛ فكيف انحرف العرب عن دينهم، دين الحنيفية، دين التوحيد الذي بُعث به إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام؟ إن المتتبع للمسار التاريخي لهذا الانحراف يجد أن نقطة البداية كانت مع أحد سادات قريش: عمرو بن لُحي، عندما احتك بثقافة جديدة، وانبهر بها.. ثقافة الوثنية! لقد أعجبته الفكرة؛ بل بهرته بشدة، فقرر أن يستوردها، وأن يستبدل بها الدين الذي عاشوا عليه جيلًا بعد جيل.

ولكن السؤال المحوري: كيف كانت البداية؟ هنا تكمن العبقرية!

لقد استغل نقطة ضعف بشرية، وهي خوف الإنسان من الغيب، وميله الغريزي نحو المحسوس؛ فراقت له ولهم فكرة وجود إلٰه يرونه ويلمسونه، بل وبأيديهم يصنعونه!

وبالطبع لم يكن الرجل من الغباء بمكان ليقول لهم: "هذا إلهكم الذي خلقكم، والذي يرزقكم". فالقوم مهما ابتعدوا عن دينهم لا زالت لديهم ثوابت أيديولوجية، وبقية من عقل يميزون به، ومنطق يحتكمون إليه؛ فكانت العبقرية في اختراع فكرة وجود آلهة "وسيطة"، بين البشر وبين الإله العظيم الذي يخلقهم ويرزقهم، كما قال الحق سبحانه وتعالى عنهم إنهم قالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾[الزمر: 3]

و العبقرية هنا تكمن في تماسك النظرية في ظاهرها، فالملوك مثلًا لا يدخل عليهم عامة الشعب هكذا بلا وسطاء، فكيف بالأله العظيم؟!

قد يبدو هذا الأمر مستساغًا في الإطار الزمني الذي برقت فيه تلك البداية الانحرافية، حيث يقف العقل البشري عاجزًا أمام الكثير من المبهمات حوله، خائفًا متوجسًا من أبسط الأشياء، وأسيرًا للخرافات المسيطرة على فكره وكيانه؛ لكنك تصدم بالفعل عندما تجد أن هذه الجزئية تحديدًا تمثل عنصرًا مشتركًا في الفكر الإنساني مهما تقدم وارتقى، ومهما بلغ به النتاج العقلي المبهر.

ففي إحدى المناظرات، (بعنوان: هل دفن العلم الله؟ -تعالى الله عما يقولون-) بين البروفيسور جون لينكس، والبروفيسور ريتشارد دوكنز، سأل دوكنز السؤال المشهور الذي يوجه لأتباع عقيدة التثليث النصرانية: هل كان الإله في حاجة إلى التجسد، والنزول على الأرض والتعرض للتعذيب والصلب لأجل أن يغفر خطايا بني آدم؟ أما كان يستطيع أن يغفر لهم وهو في ملكوته (بحسب تعبيره) وبغير كل هذا العناء؟

فأجابه لينكس (وهذا هو موطن الشاهد هنا): بأن القبول بفكرة ابن الإله -تعالى الله عما يقولون- تعطينا دليلًا مهمًا على وجود الله, فلقد تعرف الله إلينا عن طريق هذا التجسيد البشري، وقد كشف نفسه لنا بالمستوى الذي نفهمه!

إنها نفس العقلية البشرية القاصرة، مهما تدثرت بدثار العلم، وارتدت أثواب التقدم والحضارة والمدنية!

الشبات الانحرافي!

كيف يصل الانحراف من مرحلة الاستثنائية إلى الاستمرارية؟

هنا يتبدى للباحث ملمح آخر من ملامح العبقرية الانحرافية، والتي تعاملت بموضوعية مع جانب بشري أصيل، وهو جانب البحث والاستفسار، والنقد والتمحيص؛ فالعقلية البشرية قد تؤخذ ببريق البداية وتتوقف قليلًا عن التساؤل، والتدقيق، ولكن بعد خفوت البريق سيبقى المنطق، وتبقى الفطرة، ويبقى الموروث الثقافي والمعرفي، وغيرها من العوامل، كعوائق أمام الاستسلام التام لتيار الانحراف الحادث.

لهذا لابد أن يعقب البداية القوية خطوات أقوى لتثبيت دعائم هذا الخلل داخل المنظومة القيمية، إنها عبقرية "تعديل الانحراف"! أي جعل هذا الانحراف هو الاعتدال، والاعتدال أمامه هو عين الانحراف، وهذا لا يتم إلا بتنظيم هذا الانحراف، ووضع القواعد والأصول التي تجعله محكمًا متماسكًا، وبالتالي يسهل هضمه واستساغته والقبول به. وما بدأ كمجرد فكرة انحرافية، يتطور بعد ذلك إلى منظومة انحرافية متكاملة؛ فإذا عدنا إلى المثال الذي بدأنا به، نرى هذه الخطوات تمت بنجاح لدى الوثنيين العرب؛ فالأمر لم يقف عند حد استيراد فكرة "الإله المتجسد"، بل أعقب ذلك خطوات متشابكة، ومتفرعة، من القواعد والطقوس التي أحاطت هذه الآلهة الجديدة، وصاغت مبادئ دين جديد حل محل الدين الأول، وبدلًا من شغل العقول في تفنيد هذه العقيدة، استنفذت هذه العقول في متاهات تلك الطقوس المتشابكة.

فعلى سبيل المثال: كان من الطقوس المعقدة التي ابتدعوها في هذا الدين تعاملهم مع "المواشي"! فلقد وضعوا قواعد متتابعة تنظم هذه العلاقة، وصاغوا مصطلحات جديدة تطلق على البهائم في أحوال خاصة؛ فمن هذه القواعد مثلًا: قاعدة ما الذي سُيعطى منها، ولمن؟

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا هَـٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّـهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَـٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام] قال السعدي رحمه الله: "ومن أنواع سفاهتهم أن الأنعام التي أحلها الله لهم عمومًا، وجعلها رزقًا ورحمة، يتمتعون بها وينتفعون، قد اخترعوا فيها بِدعًا وأقوالًا من تلقاء أنفسهم، فعندهم اصطلاح في بعض الأنعام والحرث أنهم يقولون فيها: " هَـٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ " أي: محرم، " حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ " أي: لا يجوز أن يطعمه أحد، إلا من أردنا أن يطعمه، أو وصفناه بوصف -من عندهم-، وكل هذا بزعمهم لا مستند لهم ولا حجة إلا أهوائهم، وآراؤهم الفاسدة. وأنعام ليست محرمة من كل وجه، بل يحرمون ظهورها، أي: بالركوب والحمل عليها، ويحمون ظهرها، ويسمونها: الحام، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها، بل يذكرون اسم أصنامهم وما كانوا يعبدون من دون الله عليها، وينسبون تلك الأفعال إلى الله، وهم كذبة فُجَّار في ذلك". [تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، 275]

و أما عن المصطلحات فحدث ولا حرج، قال تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّـهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَـٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّـهِ الْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: 103] فلقد أطلقوا هذه التسميات والمصطلحات وابتدعوها من عندهم، فصار لكل وصف مصطلح مستقل.

قال ابن جزي رحمه الله: "فأما البحيرة: فهي فعيلة بمعنى مفعولة من بحر إذا شق، وذلك أن الناقة إذا أنتجت عشرة أبطن شقوا آذانها، وتركوها ترعى ولا ينتفع بها، وأما السائبة فكان الرجل يقول: إذا قدمت من سفري أو برئت من مرضي فناقتي سائبة، وجعلها كالبحيرة في عدم الانتفاع بها، وأما الوصيلة فكانوا: إذا ولدت الناقة ذكرًا وأنثى في بطن واحد قالوا: وصلت الناقة أخاها فلم يذبحوها، وأما الحامي فكانوا إذا نتج من صلب الجمل عشرة بطون قالوا: قد حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه شيء". [التسهيل لعلوم التنزيل (1/246)]

فالناظر لهذه التفاصيل وتعقيداتها يلقى في روعه أن هذا لا يمكن أن يكون محض هراء أبدًا، بل هذا بنيان محكم، وحق لا ريب فيه؛ فما بدأ كفكرة تطورت بعد ذلك إلى دين عاشوا عليه، واختلط بلحمهم وعظامهم، ودافعوا عنه، وقاتلوا لأجله، وما رأيناه في هذا المثال نرى نظيره الآن في محاولات أصحاب الانحراف المادي الإلحادي لتعديل هذا الانحراف وتسويغه وتسويقه بين البشر على أنه خلاصة الفكر البشري، ونهاية الرحلة البشرية الطويلة في دروب الأيديولوجيات.

كلا! بل مارسوا تكتيك "تعديل الانحراف"؛ لإيجاد تفسير لا ديني لهذه النظرية، منها مثلًا ما افترضوه من خلال نظرية الأوتار، أو الأكوان المتعددة، وملخص كلامهم: أن الكون الذي نحن فيه ليس هو الكون الوحيد، بل هناك أكوان أخرى، وهذه الأكوان في حالة حراك مستمر، فقد تتلاقى الأكوان وتمتزج لتصنع كونًا جديدًا، أو ينقسم أحد الأكوان لينتج كونين أو أكثر، وهذا ما حدث بالنسبة لكوننا، مجرد التصاق أو انفصال بين أكوان أزلية! فعلاً عبقرية! حتمية الزوال! الانحراف هو الانحراف! مهما طال مساره، ومهما حارب أتباعه لتسويغه، وتعديله، وتسويقه على أنه حقيقة الحقائق.

والمؤمن لديه عقيدة لا تتزحزح يعيش عليها، أن الباطل لا يدوم، والحق هو الباقي، قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: 81]

لكن رغم هذا، لابد للمؤمن أن يتعامل مع هذه الحقيقة من منظور التكليف، وليس من منظور الاستحقاق الحتمي؛ فالله سبحانه وتعالى ابتلى عباده المؤمنين بأهل الزيغ وأهل الكفر، كما قال تعالى:﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ [محمد: 4]

فكانت سنة التدافع بين الحق والباطل، بين الاستقامة والانحراف؛ فليس المطلوب من أهل الحق انتظار زوال الباطل، بل هم مكلفون بإزالته، والزيغ والانحراف في حياتنا تشعب، وتطور، مما يلقي بمزيد من العبء والمسؤولية على عاتق أهل الحق، خاصة عندما يواجه الحق بباطل تم معالجته علميًّا ليبدو كنظرية منطقية، بل وحقيقة كونية! وليست المواجهة الآن على الصعيد التنظيري الفكري فقط، بل على المستوى العلمي والتقني، أهل الباطل لا يهدأ لهم بال ولا يقر لهم قرار دفاعًا عن باطلهم؛ فإن لم يقم أهل الحق بواجبهم، ستجرى عليهم السنة الإلهية الأخرى:
﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ [محمد: 38]